الشعبويّةُ وظواهرُها في المجتمع والدَّولة

عبد الفتاح الزين ■

1) في الشعبويّة:

الحديث عن الشعبويّة Populism وفهم تمظهراتها الإيديوثقافية يتطلّب منا القيام بحفريات لغوية P حتى يسهل علينا فهْمها في السياق العربي / الإسلامي في تعدّديته من جهة، وفي تقاطعه من جهة أخرى مع سياقات أجنبية أخرى خاصّة مع ظهور العولمة التي أجّجت الشعبويّة، ودفعت البعض إلى الحديث عن شعبويّة جديدة New populism.

فبالعودة إلى الجذر (ش.ع.ب) في معجم لسان العرب لابن منظور[1] سنجده يشمل معنى الجمع والتفريق والإصلاح والفساد. كما استشهد المعجم بحديث ابن عمرو «وشعب صغير من شعب كبير»، أي صلاح قليل من فساد كثير. ومفردة شَعَّب (بتضعيف عين الفعل) مقابلها فرّق. والشِّعْب: ما انفرج بين جبلين، والشُّعبة: المسيل الصغير أو الفرقة والطّائفة؛ أمّا شُعَب الجبال فرؤوسها:

1 ـ نشر دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، 1300هـ/1883م، المجلد الأول، ص 403 ـ 497.

■ أستاذ باحث بالمعهد الجامعي للبحث العلمي ـ جامعة محمد الخامس، المنسق الوطني للشبكة المغربية للسوسيولوجيا.

كما أن الشَّـعب يعني أيضاً القبيلة العظيمة، وشُـعَب القوم: نِيّاتُهم؛ فلكل منهم نِيَّتُه. وسمّي الموت شَعوباً لأنه يفرّق بين الميت والحي. ومع الاستنتاج الأول لهذا الاسـتعراض اللغوي نجـد أن الجذر اللغـوي المذكور يتضمّن الشيء ونقيضه.

يسجل لنا التاريخ أن **مصطلح الشعوبيّة** كان أول مصطلح ظهر له علاقة من حيث الجذر اللغوي بالشـعبويّة. وقد تم نحت مصطلح الشعوبيّة كمصدر صناعي من مفردة شعوب (ج شعب)؛ ففي لسان العرب ورد أن «الشعوب غلبت بلفظ الجمع، على جيل العجم، حتى قيل لمحتقر أمر العرب شعوبيّ. وأضافوا إلى الجمع لغلبته علـى الجيل الواحد، كقولهم: أنصـاري». وهكذا رأى ابن منظور أن «الشعوب فرقة لا تفضّل العرب على العجم، والشعوبي: الذي يصغِّر شأن العرب ولا يرى لهم فضلاً على غيرهم». ولعل كتاب «البيان والتبيين» للجاحظ يُعدُّ أقـدم الكتب التي حملت إلينا هـذا المصطلح؛ حيث جاء فيه: «إنك متى أخذت بيد الشُّعوبي فأدخلته بلاد الأعراب الخلّص، ومعدن الفصاحة التامة، ووقفته على شـاعر مفْلِـق، أو خطيب مِصْقع، علـم أن الذي قلت هو الحق... فهذا فرق ما بيننا وبينهم. فتفهَّم عني فهَّمك اللّٰه... ثم اعلم أنك لم تَر قوماً أشـقى من هؤلاء الشُّـعوبِيّة، ولا أعدى على دينه، ولا أشد استهلاكاً لعِرضه ولا أطول نصباً، ولا أقل غُنْماً من هذه النِّحْلة»[2]. وهكذا يرى الجاحظ أن الشـعبويّة نِحلة من النِّحَل. وأن هذه عقيدة تقوم ـ كما يوضح ـ على نبْذٍ وكُرهٍ لما هو عربي والتنقيص منه. وهو ما يذهب إليه القرطبي في تفسيره؛ حيث يورد أن «عادة العرب العرباء، الفصحاء اللسن البلغاء أخذ المخصرة والعصا والاعتمـاد عليها عند الـكلام، وفـي المحافل والخطـب، وأنكرت الشـعوبيّة على خطباء العـرب أخذ المخصرة والإشـارة بها إلـى المعاني، الشـعوبيّة تبغض العرب وتفضّل العجم»[3]. كما أن ابن قتيبة أورد في «كتاب

2 ـ الناشر: مكتبة الخانجي بالقاهرة، الكتاب الثاني، الجزء الثالث، ص29 ـ 30، الطبعة السابعة، 1418هـ/1998م.

3 ـ الجامع لأحكام القرآن، لأبي عبد اللّٰه محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي. دار الكتب المصرية، القسم الأدبي، القاهرة، مطبعة دار الكتب المصرية، 1360هـ/1941م، المجلد 11، ص189.

العرب أو الرد على الشعوبيّة»[4]: «وأعاذنا من فتنة العصبية وحمية الجاهلية وتحامل الشعوبيّة؛ فإنها ـ بفرط الحسد ونغل الصدر ـ تدفع العرب عن كل فضيلة، وتلحق بها كل رذيلة، وتغلو في القول، وتسرف في الذم، وتبهت بالكذب وتكابر بالعيان، وتكاد تكفر ثم يمنعها خوف السيف... ولم أَرَ في هذه الشعوب أرسخ عداوة ولا أشد نصباً للعرب من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى، فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم وأهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم، ويرون الشرف نسباً ثابتاً».

يسجل لنا التاريخ أن مصطلح الشعوبيّة كان أول مصطلح ظهر له علاقة من حيث الجذر اللغوي بالشعبويّة. وقد تم نحت مصطلح الشعوبيّة كمصدر صناعي من مفردة شعوب (ج شعب).

من خلال هذه الاطلالة على الحمولة الثقافية التي قدمت لهذا المصطلح يمكننا القول ـ كما توافق عليه المهتمون بهذه الظاهرة ـ بأنها حركة أو تيار فكري فارسي مُناهِض للعرب. وقد بدأت الشعوبيّة في الظهور في النصف الثاني من القرن الأول الهجري، واستمرت طوال فترة العصر الأموي، حتى اشتدت وقويت في العصر العباسي على خلفية الصراع حول الأحقية بالخلافة. غير أن الجاحظ يقول في رسالته «فخر السودان على البيضان»[5]: «إن الشعوبيّة لم تكن تشيع بين الفرس فحسب، وإنما طالت بقية الأمم، كالأندلسيين والزنج من أهل إفريقيا...، واجتمعوا ـ هؤلاء ـ على العداء للعرب، والاستطالة عليهم، والحطّ من شأنهم». وقد وسّع المفهوم ليخرجه من قالب الصراعات العربية الفارسية ليشمل بقية الأمم والمجتمعات مقابل العرب.

ودون الخوض في صحة هذه الادعاءات من عدمها، فإن أنصار الشعوبيّة يعزون ظهورها إلى أسباب عديدة، من بينها:

4 ـ ضمن مجموع «رسائل البلغاء» لمحمد كرد علي، مطبعة دار الكتب العربية الكبرى، مصر، 1331هـ/1913م، ص 269 ـ 270.

5 ـ ضمن ثلاث رسائل للجاحظ من تحقيق وتقديم G. Van Vloten، مطبعة بريل، ليدن، هولندا، 1903.

• ما هو اجتماعي يتمثّل باستعلاء العرب على الموالي (غير العرب الداخلين في الإسلام)، ونظرتهم إلى غيرهم من الشعوب نظرة السيد، فيزعمون أن العرب يحطّون من شأن الموالي، حتى إنهم لا يمشون معهم في الصف نفسه، ولا يزوِّجون المولى من عربية، وإذا ما تزوَّج أحد الموالي من عربية يُطلق على اسم ابنه لقب «الهجين» أو «الخلاسي»، وغيرها من تصرفات العرب التي كانت تحط من شأن غير العربي.

• وهناك ما هو سياسي؛ إذ عمد الأمويون خلال فترة حكمهم على نبذ الموالي وإقصائهم عن المراكز الحسّاسة في الحكم، كما كان العرب يختارون الولاة منهم، وكذلك القضاة وأئمة المساجد، ويمنعون الموالي من الانضمام إلى الجيش العربي النظامي المؤلّف على أساس قبلي، وإذا ما اقتضت الحاجة لهم فلا يقبلونهم إلا متطوعين ومحاربين راجلين.

• ومنها ما هو اقتصادي؛ حيث عاش الموالي حالة متردّية من الفقر، واقتصرت أعمالهم على المهن المتدنية، في الوقت الذي كان العرب يتسلمون مفاصل السلطة ورتب الجيش. كما أن الضرائب التي فُرضت على الموالي المسلمين كان مبالغاً فيها وأرهقت كاهلهم، وقد برّرها البعض بسبب الأزمة المالية في منتصف العصر الأموي.

في حين يرى كثير من الباحثين ـ بالاستناد إلى التاريخ المدوّن ـ أن هذه الأسباب لم تكن الأساس في ظهور الشعوبيّة؛ إذ يرجعونها إلى سبب رئيس يتمثّل بتأصل العصبية القومية، وتضخّم النزعات القومية الاستقلالية في نفوس الموالي، والفارسية منها على وجه الخصوص.

ويبرر مَن يذهب في هذا المنحى رؤيتَه بأن سياسة الأمويين في إقصاء غير العرب عن السلطة نابعة من أوضاع العرب السياسية والفكرية في الدولة الأموية، فالعرب هم الفاتحون والمنتصرون، وهم من قدّموا أكثر التقديم في سبيل انتشار الدعوة الإسلامية. وعلى الرغم من ذلك فالموالي تسلّموا الإشراف على ديوان الخَراج والرسائل، ووظائف الحراسة والحجابة، وفي ميادين فنية مختلفة.

وسيتقوّى دور الشعوبيين مع قيام الدولة العباسية، التي أنصفتهم وفتحت لهم أبواب الوزارة والجيش، وأصبح لهم فيها صوت مسموع ونفوذ واسع. وانضاف إلى ذلك اختلاط الشعوبيّة بالحركات والثورات المعارضة، من خلال انخراط كثرة من الموالي بنشاط هذه الحركات. وهو ما كان من نتائجه تفريق الشعوبيّة بين العرب بوصفهم حاملين راية الإسلام، والحضارة الإسلامية بوصفها تزاوجاً بين مختلف الثقافات بعد انتشار الإسلام خارج نطاق الجزيرة العربية. وطرح هذا الأمر مسألة دور الثقافات غير العربية في ازدهار الحضارة العربية/الإسلامية، مع تبخيس للعروبة كثقافة ارتبط تطورها بظهور الإسلام وانتشاره بين الأقوام غير العربية. ومن الجدير بالذكر الإشارة إلى أن امتدادات هذه القضايا ما زالت حاضرة في الفضاء العربي/الإسلامي إلى يومنا هذا بأشكال مختلفة.

مع ظهور الحركات التحررية ونشوء الدول القطرية في إطار صعود إيديولوجيات جديدة في سياق التطورات التي انطلقت مع الثورة الصناعية، بدأ نقاش حول مصطلح «الشعبي»، والذي انقسمت فيه الآراء إلى تيارين أساسيين.

ومع ظهور الحركات التحررية ونشوء الدول القطرية في إطار صعود إيديولوجيات جديدة في سياق التطورات التي انطلقت مع الثورة الصناعية، بدأ نقاش حول **مصطلح «الشعبي»**، والذي انقسمت فيه الآراء إلى تيارين أساسيين:

- رأى التيار الأول أن ما هو شعبي يتميّز بالابتذال والسذاجة إلى حد السطحية؛ فما هو كذلك يتميّز بالشفهية وسيادة التقاليد، مع الاحتكام إلى الأعراف، لدرجة أن أصحاب هذا التيار يعدُّونها معرقلة للتقدّم الاجتماعي ومعارضة لكل تنمية وتطور، وهو ما جعلها ـ في نظرهم ـ عاملاً من عوامل التخلّف. ولهذا رأوا أنه يجب استبدال النظام الاجتماعي لهذه المجتمعات التي كان ينظر إليها على أنها مجتمعات باردة.

- بينما يرى التيار الثاني أن كل ما هو شعبي هو رديف للثورة والنضالية ضد كل أشكال القهر والاستبداد والاستغلال. وهكذا ظهرت أنظمة شعبية أو اتخذت هذه الأوصاف متدثّرة بها لتمرير ديكتاتوريتها ونخبويتها.

هذا التأرجح في النظر إلى ما عُدَّ «شعبياً»، وتقييمه من منظور إيديوسياسي أكثر منه فكريا وسوسيوثقافياً فتح نقاشاً كبير حول مسألة الأصالة والمعاصرة، وكيفية فهْمهما في فضائنا الثقافي والعلاقات بينهما[6]. وهذا النقاش غطّى على مختلف أشكال التعبير والممارسات.

وبانهيار جدار برلين وما واكبه من تفكّك لمنظومة الحلف الاشتراكي، وانتقال من أجواء الحرب الباردة ـ والذي كان من نتائجه اندحار الإيديولوجيات أمام حقوق الإنسان، وظهور أجيال جديدة من الحقوق (الحقوق الاقتصادية والثقافية)، والانتقال من الحديث عن حقوق الإنسان إلى التركيز على الحقوق الإنسانية، خاصة الحقوق الفئوية إلى جانب الحقوق الفردية ـ سيطفو إلى السطح **مصطلح الشعبويّة**.

فلئن كان للشعبويّة جذورها التاريخية المختلفة عن فضائنا العربي/ الإسلامي كتيار سياسي فإنها في روسيا القيصرية ظهرت في سياق دخول الأفكار الاشتراكية من الغرب سنة 1870. وخضعت إلى تكييف لتتلاءم مع ظروف الحياة الروسية. وقد أخذ هذا التكييف في الأوساط الاشتراكية الروسية الأولى شكل حركات شعبويّة كانت فيها مراهنات النخبة على أن الثورة تقوم على دور الفلاحين الأساسي. ومع مواجهتها بالقمع انتقلت سنة 1876 إلى السريّة للقيام بثورة جماهيرية. وتم طردها كذلك من البوادي، فاستولى الجناح الإرهابي على الحركة تحت اسم نارودنايا ڤوليا Narodnaïa Volia، والتي انطلقت في سلسلة اغتيالات كان أهمها مقتل القيصر ألكسندر الثاني في مارس 1881. وفي سنة 1901 تأسس الحزب الاشتراكي الثوري كوريث لهذه الحركات الشعبويّة إلى جانب الحزب الاشتراكي الشعبوي. وعن هذه الحركة ـ التي وُصفت بأنها يمينية ـ تبلور حزب ذو إيديولوجية ماركسية سيتزعمه لينين.

6 ـ انظر على سبيل المثال: مجلة مواقف التي خصصت عددين لهذه المسألة.
ـ عدد 34 (يناير 1979) http://archive.alsharekh.org/contents.aspx?CID=15746
ـ عدد 35 (أبريل 1979) http://archive.alsharekh.org/contents.aspx?CID=15747

أما بالولايات المتحدة فإن الشعبويّة ظهرت في سياق نتائج الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ساعد على تعاظمها الظروف الاجتماعية التي أفرزها التصنيع والانتشار الاقتصادي مع ما رافق ذلك من تردّي سمعة السياسيين. وهو ما تكلّل بتقديم مرشح للحزب الشعبوي في انتخابات 1892؛ كما قاد الغضب الجماهيري أمام هذه التفاوتات إلى رفض كل من الحزبين الديمقراطي والجمهوري. غير أن فشل المرشّح في الفوز شكّل ضربة قاتلة للشعبويّة عموماً ولزعاماتها دون أن تختفي؛ حيث إن برنامج «الصفقة الجديدة» New Deal لفرانكلين روزفيلت شكّل نوعاً من الاعتراف بالمطالب الشعبية التي رفعتها الحركات الشعبويّة ضد تجاوزات «العصابات والبارونات». وسنوات بعد ذلك، سيقوم رونالد ريغان بتركيبٍ جديد ومتناقض بين ليبرالية مسرفة ultraliberalism والشعبويّة، من خلال نقد جذري للدولة الراعية welfare state باسم حقوق الضعفاء والمعوزين، والذين تغتصب مداخيلهم من طرف بنيات وسيطية طفيلية.

إنّ الشعبويّة ظهرت في سياق نتائج الحرب الأهلية في الولايات المتحدة الأمريكية. وقد ساعد على تعاظمها الظروف الاجتماعية التي أفرزها التصنيع والانتشار الاقتصادي مع ما رافق ذلك من تردّي سمعة السياسيين.

بينما لم تنتج مرحلة الحرب الباردة ولا مرحلة ما بعد سقوط جدار برلين عموماً في فضائنا العربي/الإسلامي إلا تبعية فكرية وسياسية، بالرغم من وجود كتلة مثقفة شكلت بأصواتها إشراقة دون أن تكون حرجة لإحداث الأثر المطلوب لهامشيتها وللتهميش والإقصاء اللذيْن تعرضت لهما؛ حيث وصل الأمر في عدد من الحالات إلى السجن أو النفي الاختياري. وهذا ما جعل الشعبويّة تنتشر في أوصال المجتمع وبنياته إلى حدّ أن أحد المفكرين المغاربة[7] تحدّث

7 ـ عبد الله إبراهيم، صمود وسط الإعصار. مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء (المغرب)، الطبعة الثانية، 1976 [وللإشارة فالأستاذ عبد الله إبراهيم من الرعيل الأول للحركة الوطنية، ومن مؤسسي الحزب الوطني للقوات الشعبية الذي انشق عن حزب الاستقلال بُعَيْد إسقاط حكومته، التي شغل فيها منصب أول رئيس للحكومة في عهد المغفور له محمد الخامس. بعدها قام كأي أستاذ بالتدريس والتأطير في كلية الحقوق بجامعة محمد الخامس].

عن استدامة الديموفوضوية demo-anarchy كاختيار للاستفراد بالحكم، من خلال نظام ديمقراطي شكلي يقوم على دعم القواعد الشعبية، التي تنعتها بعض الأدبيات السوسيولوجية بالطبقات الخطيرة؛ لأنها تكون خانعة (= القبول بوضعية الرعايا بدل المواطنين) ما دامت لها امتيازات ولو قليلة، وقد تتمرّد إذا ما تم المساس بهذه الامتيازات التي تحصل عليها في إطار الزبونية والمحسوبية. إنها التربة المجتمعية التي ترعرعت فيها الشعبويّة في فضائنا العربي/الإسلامي.

من خلال هذا الاستعراض المختزل للشعبويّة وتمظهراتها السوسيوتاريخية وتقاطعاتها مع أشكال إيديولوجية تنتمي إلى أرومتها اللغوية نفسها (= الشعوبيّة والشعبية)، يمكننا القول بأن مصطلح الشعبويّة قد يعني إما الحركات الديمقراطية (الشكلية) أو الاستبدادية[8]. وعادة ما تنتقد الشعبويّة التمثيل السياسي وأي شيء يتوسط في العلاقة بين الناس وزعيمهم أو حكومتهم. وتسعى الشعبويّة ـ في أكثر أشكالها ديمقراطية ـ إلى الدفاع عن مصلحة المواطنين العاديين وتعظيم قوتهم من خلال الإصلاح بدلاً من الثورة، سواء ضمن مؤسسات حزبية أو عبر هيئات وساطة سياسية دون أحزاب أو نقابات. وما يجمع بين الأحزاب السياسية التي تعتمد الشعبويّة في عملها السياسي أنها كانت تسعى إلى الدفاع عن مصالح المواطنين دون اعتماد على الصراع الطبقي.

وقد واكبت هذه التنظيمات السياسية حركات وتيارات أدبية وفنية تناولت حياة أفراد الشعب البسطاء، وعالجتها بنوع من الواقعية عبر مختلف التعبيرات الثقافية والفنية، تتأرجح بين الانتصار للنزعة الشعبية على أساس أن الفئات الشعبية البسيطة حاملة لمنظور ورؤى جمالية وثقافية يجب الاعتراف بها، وبين شعبويّة تجتهد في التنظير لكل ما يعارض البنيات والأفكار النسقية القائمة على نقد فكري واجتهاد معرفي.

8 ـ استناداً إلى النظرة العاميّة للديمقراطية، فإنها رديف للديكتاتورية مثلما تعني الجمهورية الفوضى. انظر على سبيل المثال بعض الدراسات على صفحات مجلة لاماليف Lamalif المغربية الصادرة بالفرنسية، والتي تم الضغط عليها لتتوقف عن الصدور سنة 1988. [حول هذا الموضوع انظر مؤلف «سنوات الرصاص المعرفية والثقافية بالمغرب (1956 ـ 1999): المجلات والنشر»، سيصدر قريباً عن المعهد الجامعي للبحث العلمي تحت إشرافي].

إن الشعبويّين يطالبون بما يسمونه «الديمقراطية المباشرة»، من خلال مبادرات جماهيرية واقتراعية تُعْلي من شـأن الزعامة، وهذا ما يجعلها ـ في الفهم المعاصر ـ ترتبط في أغلب الأحيان بنموذج اسـتبدادي من السياسة، يقوم فيه نظام الحكم على شـخصية زعيم له جاذبية وهيبة، تجعله «يدعي» تجسيد إرادة الشعب من أجل تعزيز سلطته، وتلتف حوله الفئات الشعبية التي تعدُّه الأب الروحي والمنقذ الوحيد.

وتقرّ الأدبيات الفكرية (السوسيولوجيا، العلوم السياسية ...) أنه يمكن التعرف على الشعبويّة من خلال الأسـلوب والبرنامج السياسيين لدعاتها، والحكامـة التـي يَتَبَنَّوْنَهـا؛ إذ غالبـاً ما يلجأ الشـعبوي للانتقاد السياسـي بطريقـة مزعجة بهـدف إرهـاب وتخويـف النـاس مـع إلهاب حماسـهم. واعتماداً على وجهة نظر الشـعبويّة يقوم البرنامج الاقتصادي الشعبوي على أرضية تعزز مصلحة المواطنين العاديين والبلاد ككل، أو من خلال السـعي إلـى إعادة توزيـع الثروة لاكتسـاب شـعبية، دون النظـر إلـى العواقب المترتبة على البلـد مثل التضخـم أو الديون، ويوازي كل هـذا حَجْر على الحقوق الإنسـانية، وخاصة حرية التعبير والمبادرات المواطنة.

يقوم البرنامج الاقتصادي الشعبوي على أرضية تعزز مصلحة المواطنين العاديين والبلاد ككل، أو من خلال السعي إلى إعادة توزيع الثروة لاكتساب شعبية، دون النظر إلى العواقب المترتبة على البلد مثل التضخم أو الديون.

وكخلاصة لهذا التحليل، **يمكننا القول بأن الشـعبويّة تتغذى على كل ما هو شعبي في مستواه العامي الساذج والمبتذل**، والذي لا يراعي التفاوتات والاختلافات، ويستبدلها بالثوابت، التي يجعلها مطلقة وقائمة خارج السيرورة التاريخية، بل إن هذه السـيرورة توظَّف لدعم هـذه الثوابت. **وهو ما يجعل الشعبية والشعبويّة وجهين لفكر استبدادي وصِنْواً للديكتاتورية.** كما أنها تنتج بل وتعتمـد على الشـعبويّة باعتبارها رديفاً للعنصريـة وتحقيراً لمكانة الأقليات العرقية أو العقدية أو الثقافية... وهو ما نلاحظه في وقتنا الحالي من تصاعدٍ لفكرٍ شـعبوي ينظـر إلـى الأجنبي بريبـة، ولا يحتـرم الاختلاف،

ولا يعترف بالحق فيه. ولعل التاريخ الحديث والمعاصر حابل بعدد من النماذج الشعبويّة من هذا القبيل. نكتفي بالإشارة هنا إلى بعض النماذج من الأنظمة الفاشـية (هتلر وموسـوليني)، والجماهيرية (القذافي، وبيرلوسكوني)، وحتى الاشتراكية منها (ستالين وهيكو تشافيز) بل ويمكن تعميم هذا بِغَضّ النظر عن نظام الحكم ملكياً كان أو جمهورياً.

2) مرتكزات الشعبويّة:

بالنظر إلى ما تقدّم يلاحـظ أن الدارس للشـعبويّة لا يمتلك نموذجاً مثاليّاً ideal-type يُعَرِّف انطلاقاً منه الشعبويّة بشكل مضبوط ومحدد، أكثر من هذا أن مفهوم «الفضاء العربي / الإسـلامي» كتصنيف جيو-سياسي هو بدوره موضوع نقاش؛ فبناء نموذج مثالي يفترض وجود خصائص «منسجمة»، وإلّا فإن عملية التجريـد تنتهي بتضخم الروابط التـي ينبغي أن تؤلّف بين المفهوم والمحيط التاريخي والجغرافي المدروس وكذلك الوسـط الثقافي والمؤسسي، ومن خلال تناول مختلف نصوص العلوم الاجتماعية والسوسيولوجي والسياسـي منها على الخصوص، سـنجد أن تعريف الخصائص الأساسـية للشعبويّة كحركة تحدّد بكونها:

أ ـ نقيضاً للحداثة، يحملها تيار قوي يرفض التقدّم باسم الدفاع عن قيم تقليدية ماضوية.

ب ـ تعبيراً لمثقفين يرفضون مكانتهم الاجتماعية، ويطالبون (أو يبحثون) عن تواصل «أسـطوري» مع الشـعب، نابع من مِخيالهم («الشعب» هنا غالباً ما يُعاد إبداعه من طرفهم لأهداف شخصية).

ج ـ وسـيلةً لإعادة البناء من طرف هُويّات مهمَّشـة من طرف سـيرورات سياسية واقتصادية تعارضها؛ رغبة في العودة إلى أشكال وحدة روحية وثقافية متمثَّلة، كما لو أنها تنتمي لماض تليد.

ولتجاوز هذه العقبات الإپستيمولوجية epistemological نقترح مسلّمتين سهلتين:

• بداية: عدّ الشعبويّة كإيديولوجيا تفترض تأسيس الشرعية السياسية على وجود انسجام بين سدة الحكم السياسي و«الشعب»، الذي يُعدّ ـ بشكل نسقي ـ متميّزاً عن المؤسسات التي تجسّد وتمثّل الإجماع بين المكونات السياسية.

• أما المسَلّمة الثانية ـ والتي ترتبط بشكل عضوي بالأولى ـ فتتمثّل في كون هذه الشعبويّة لا تأخذ معناها إلا في إطار أنظمة دستورية قائمة على التمثيلية.

من هنا تبدو لنا «سلطة الشعب» مسألة عويصة لدى فقهاء الدستور في كل الدول؛ حيث يطرحون السؤال التالي: «هل الحكم الذي لدى الشعب عن القضايا السياسية أكثر صواباً من حكم الطبقات العليا؟». فهناك من يرون أن الشعب يتميّز «بغريزة سليمة» لينصت للزعماء والقادة الذين يقترحون «أفكاراً جيدة» وحلولاً لمشاكلهم، لكن هؤلاء حريصون على عدم التصريح بمدى استلهام أو استخلاص هؤلاء الزعماء والقادة لأفكارهم من أفكار ومطالب الشعب. غير أن السياسة «الشعبويّة» ـ مقارنة بسياسة الطبقات المتنورة ـ تدفع المحافظين والشعبويين منهم ـ تحت التأثير القوي عبر تقنيات الاتصال السياسي على الرأي العام ـ إلى إنكار مشروعية إخضاع السياسة لحكم الجماهير. ويجب التنبيه إلى أن هذا الأمر لا يعني رفضاً مطلقاً لمفهوم «الشعب»، الذي يكون المحافظون والشعبويّون في حاجة إليه لإعطاء شرعية لمعركتهم ضد خصومهم السياسيين.

تبدو لنا «سلطة الشعب» مسألة عويصة لدى فقهاء الدستور في كل الدول؛ حيث يطرحون السؤال التالي: «هل الحكم الذي لدى الشعب عن القضايا السياسية أكثر صواباً من حكم الطبقات العليا؟».

في تاريخنا الحديث والمعاصر خلّف سقوطُ الأنظمة السياسية الاستعمارية والديكتاتورية والشمولية (مع تصاعد الحركات الاستقلالية، وتقوّى ذلك بعد سقوط جدار برلين على الخصوص) إشكاليةَ «الشعب» كموضوع سياسي، من خلال أشكال التمرد والثورة والعصيان المدني...

ضد سـلطة الحكم التي قد تُمارَس باسـم شـرعية عليا غير نابعة بشكل مباشر من نظام قانوني ودستوري. ونسجّل في هذا الصدد المطالبة بسلطة «أصيلـة وأصلية» كشـرعية ضد انحـراف الطبقة السياسـية التي تريد الانفراد بالدولة.

هكذا تبدو الشـعبويّة في النقاش العمومي، مثلما هو الأمر في العلوم الاجتماعية، سيئة السمعة كما يردّد ذلك عدد من الباحثين والمختصين، ولكن ليس بمعناها الشعبي (الاهتمام بالشعب والالتزام بقضاياه من خلال المطالبة بتكافؤ الفـرص، والعدالة الاجتماعية...)، بـل عندما يتم تمثل ما هو شعبي بشكل مبتذل وساذج وسطحي. ولهذا أصبحت الشعبويّة تعبيراً سياسيّاً يقوم على منطق مضاد للديمقراطية أو غير ديمقراطي بالمرّة، دون أن يصل إلى حدّ الاستبداد والشـمولية. ومع ذلك هناك نزعات وميولات مقلقة، يمكن وصفها بأنها قومية، وعنصرية، وتتسـم بكراهية للأجانب. إنها تنمو كدودة فـي فاكهة، لتتحول ـ إذا واتتهـا الظروف ـ إلى تطرف وميول للعنف بل وإلى نوع من الأصولية.

فكما لاحظنا لا يوجد ـ إلى يومنا هذا ـ تعريف شافٍ للشعبويّة؛ ولكن يمكننا تحديد مرتكزاتها الأكثر شيوعاً؛ إنها تشير إلى العلاقة المباشرة ودون وسـاطات بين الشـعب وقيادته، حتـى في حالات وجود مؤسسـات وسـيطية كالأحزاب والبرلمان والنقابات... ويبلورهـا الزعيم أو القائد الملهم الذي يجسِّـد السلطة والشـعب معاً. هكذا تقدّم الشعبويّة نفسها كنقيض للمؤسسات وكمعارضٍ لها وللقوى المنظَّمَة المُهيكِلة للمؤسسات. إنها تشتغل كأسطورة؛ حيث تَصَالَحَ في خطابها ما هو متناقض في الواقع وبشكل كبير. إنها نوع من التفكير السحري، وهو ما يجعل هذه التناقضات غير محرجة لها؛ إذ تتوفر على أخلاقياتها، وتحتكم إلى المعنى الخاص بها الذي تعطيه للعدالة؛ لكن إذا لاحقت العدالة أحد قياديها أو أعضائها البارزين فـي قضايا أخلاقيـة أو قضايا فسـاد؛ فإنها تصنـع العراقيل لملاحقته، أو تختلق الأسباب التي يتابع لأجلها، بل وتنتصر له ولا تطعن بالضرورة في مصداقيته.

وسوسيولوجيّاً تجد الشـعبويّة مرتعها في المراحل التاريخية التي تشهد تغيّرات مجتمعية أو سياسية، خاصة عندما تتعثر سيرورة هذه التغيّرات، وتدخل الأنظمة السياسية في أزمة؛ فتستفيد من ضبابية المشهد لتطرح نفسها كبديل ينتصر للشعب وكحامل لمطالبه. وهذا أمر نعيشـه اليوم مع إفرازات الربيع العربي مثلاً بعدد من الـدول، أو حتى في دول غربية مـع الأزمة الاقتصادية وتداعياتها وتصاعد التوترات حول الهجرة: هل نعيش عصر نهاية السياسة أو السياسي (= الموضوع والفاعل)، كما تنبأت بذلك الأبحاث السوسيولوجية على الخصوص؟[9] إن الشعبويّة أمام هذا الوضع تعلن استمرارها وانتعاشها، واعدة بالتغيير دون أن تغيّر نفسها. إنها لا تقدّم نفسها كوصفة وليس لها التركيبة الإيديوثقافية نفسـها، لكن السوسيولوجي ميشـال فيڤيوركا Michel Wieviorka[10] يرى أن لهـا أربعة مرتكزات كبرى نستعرضها كالتالي:

أصبحت الشعبويّة تعبيراً سياسيّاً يقوم على منطق مضاد للديمقراطية أو غير ديمقراطي بالمرّة، دون أن يصل إلى حدّ الاستبداد والشمولية. ومع ذلك هناك نزعات وميولات مقلقة، يمكن وصفها بأنها قومية، وعنصرية، وتتسم بكراهية للأجانب.

- قد تكون يمينية أو يسـارية، وتقوم على نوع من الأصوليـة الفكرية أو غيرها مـن الأصوليات، وتتميّـز الشـعبويّة اليمينيـة بكونها غالبـاً قومية، وعنصرية، وتدعو إلى كـره الأجانب. كما أنها ضد المثقفين؛ إذ تدعو إلى انغلاق المجتمع على نفسه داعية إلـى مجتمع منسـجم وطاهر ثقافيـاً. فلهذا

9 ـ انظر على سـبيل المثال أعمال ميشـيل مافيزولي، وكنت قد دعوته لمحاضرة بالمعهد الجامعي للبحث العلمي سنة 1993 حول هذا الموضوع.

Michel Maffesoli: Le temps des tribus. Le déclin de l'individualisme dans les sociétés de masse. Coll. «Sociologies au quotidien», Paris, Méridiens Klincksieck, 1988.

كما أنه أجرى اسـتجواباً نشـر تحت عنوان: «الديمقراطية غير موجـودة»، نقط مضادة (مجلة إلكترونية)، عدد 2 ديسمبر2013.

https://www.contrepoints.org/2013/12/02/148380-michel-maffesoli-la-democratie-nexiste-plus

10 ـ للمزيد من الاطلاع على الموضوع باللغة الفرنسية، انظر الرابط التالي:

https://wieviorka.hypotheses.org/794

لا عجب إذا عرفنا أن دعوات الطهرانيــة والصفاء كلها عرقية وعنصرية، وتظهر في أوقات بروز الشــعبويّة وتحــت الأنظمة الاســتبدادية. بينما تقوم الشــعبويّة اليســارية على نمط ديماغوجي مســنود بالزعامة، واعدٍ بالقضــاء على النظام القائم. ويدعو هنا كذلك إلى مجتمع مغلق، يقوم على نوع من القومية التي تحتكم إلى الانخراط في المؤسســات واعتماد المبــادئ التي تدعو إليهــا. ويظهر هذا الصنف من الشعبويّة عندما يتحلل اليســار التقليدي فاسحاً المجال أمام أشكال متنوعة للجذرية radicalism. ولعل رواية «نهاية الإنســان الأحمر»[11] للبيلاروسية سفيتلانا ألكسييفيتش الحاصلة على جائزة نوبل للآداب ـ والتي حللت فيها بشكل بديع صعود الشعبويّة أيام سقوط النظام السوفياتي ـ توضح ذلك.

• كما يمكن للشعبويّة أن تكون قاعدية (بمعنى جماهيرية) أو زعيمية دون أن تكون لا يمينية أو يسارية. وتتميّز القاعدية بشعبيتها، ويَقْتات خطابها على عناصر سوريالية ومتناقضة من اليمين وحتى اليسار؛ حيث تعطي انطباعاً بعدم انســجامها. كما أنها تقدّم وعوداً غير قابلــة للوفاء، إلى جانــب تناقضاتها الكثيرة ودعم مطلــق للزعيم القائد. في حين تقوم الشــعبويّة الزعيمية على خطاب مهدوي أسطوري، يدعي تجاوز التصنيفات بين يساري ويميني من أجل نظام من نوع جديد. ويســعى الزعيم في خطاباته إلى التواصل مع مثقفين/متعلميــن عزفوا عن الأحــزاب التقليدية (يمين/يســار)، كما أنها تســتقطب مفكرين من اليســار واليمين معاً. وهناك نماذج مختلفة ناشــئة بفرنسا التي يحكمها حزب «إلى الأمام» بزعامة إيمانويل ماكرون، وبتونس نجد حزب «نداء تونس»، كمثال.

وفي بعض الحالات نجد النماذج المذكورة أعلاه متعايشة في البلد نفسه مثلما هو الحال في فرنســا (ماكرون، لوبين، جان ـ لوك ميلانشــون) أو في تونس (نداء تونس، النهضة)... وقد تدخل هذه الشعبويات في صراعات بينها كحالة إيطاليا مثلاً أو حتى العراق... وقد تتحول هذه الصراعات إلى عنف قد يصل إلى حــد الدمار أحياناً (حالة ســوريا وليبيا كنموذجيــن). فليس هناك

11 ـ Svetlana Aleksievitch, La fin de l’homme rouge. Actes Sud, Paris, 2013.

شعبويّة واحدة ووحيدة، وإنما تختلف الشعبويّة في تمظهراتها بحسب الظرفية السوسيوتاريخية التي تعيشها البلاد والتيارات الإيديوثقافية التي تخترق المجتمع أو تَرسَّبت فيه.

3) على سبيل الختم: هل الشعبويّة مرض الديمقراطية؟

في الوهلة الأولى يبدو أن مقاربة الشعبويّة من خلال السيكولوجيا السياسية قد تسمح بالتعرف على عنصر مركزي مشترك مع كل ما أشرنا إليه، يتمثل في الاقتناع/الإقناع بأن هناك مؤامرة تحاك ضد الشعب (وهذا يختلف عما ينعته الإعلام بنظرية المؤامرة)، غالباً ما تكون مصادرها خارجية وأجنبية في الغالب. وتظهر الشعبويّة مثلما لو أنها ليست إيديولوجيا ورافضة لها، وضد كل ما هو إيديولوجي من أي صنف كان، بل وقد تكون هذه السلبية الإيديولوجية مهد لرفض الرأسمالية، والإمبريالية، وكره الأجانب، والتمدّن... وغالباً ما تُنعت هذه المؤامرة بأنها مِنْ فِعْلِ قُوىً خفية وغامضة، ويتم شجبها بأسلوب مريب يمتح من جنون العظمة. وتعود ظروف تمأسس هذه النظرة الليبرالية والنقدية المفرطة للشعبويّة في عصرنا الراهن إلى ظهور الدول القطرية، مما ساعد على تصحيح النظرة المعادية لها؛ حيث إنها تقدّم نفسها بأن لها توجّهاً إصلاحيّاً يهدف إلى التقدّم بوصفها مستفيدة من الديمقراطية. فقد تقوم بمعارضة مركزية الدولة أو تمركز السلطة، وتتحدى سلطان الطبقة الجديدة الناتجة عن (نظام الخبراء Experts). إنها من أعراض الديمقراطية.

يمكن للشعبويّة أن تكون قاعدية (بمعنى جماهيرية) أو زعيمية دون أن تكون لا يمينية أو يسارية. وتتميّز القاعدية بشعبيتها، ويَقْتات خطابها على عناصر سوريالية ومتناقضة من اليمين وحتى اليسار؛ حيث تعطي انطباعاً بعدم انسجامها.

وتبدو الشعبويّة المعاصرة بحسب تمثلنا للشعب كتراب أو كعرق؛ ففي المستوى الأول تكون **الشعبويّة احتجاجية**، ومن ثم تكون تعبئة الشعب للنقد أو إدانة النخب القائمة بحكم الواقع، سواء كانت نخباً سياسية أو إدارية أو اقتصادية أو ثقافية. وهذا الرفض للنخب لا ينفصل عن تأكيد الثقة

بالشـــعب، الذي يعرَّف كمجموع المواطنين العاديين. فلهذا ـ وعلى أســـاس التعارض بين النخب الواقعية (إن لم تكن شرعية) والشعب ـ يصف البعض هذا الشكل من الشعبويّة بأنه مغالٍ في الديمقراطية، ويقوم بتمجيد صورة المواطن النشـــيط والمحترس من الأنظمة التمثيلية، والتي يرى أنها تسلبه سلطته أو تستحوذ على مبادراته. فالمعارضة بين النخبة والشعب يمكن أن تظهر في أشـــكال تعارض مانوية بين مَنْ هُم في الأعلى (البلد الشـــرعي)، ومن هم في القاعدة (البلد الفعلي) وتعتمد على هذه المكانة الاحتجاجية. هذا النقد المزدوج الذي يســـتهدف النخبة والشعب يبرر تعريف المشروع السياسي المتمركز حول تقليص التفاوت بين الشـــعب ومن يحكمونه باسم تمثل معين للديمقراطية المباشـــرة، التي من المفروض أن تدعم المواطن النشيط. إنه الوجه الإيجابي للشكل الأولي **للشعبويّة السياسية**، التي تمجد الديمقراطية المباشرة، وتدعو في ارتباط مع هذا إلى توفير أدوات ووسائل مؤسسية (الاقتراع بمختلف أنواعه وأشكاله وأنماطه) تسمح بممارسة ما تعدُّه واجباً وحقاً.

هل يمكننا الخوف من الشعبويّة؟ وهو سؤال عالجته العديد من المقالات عشـــية صعود قوى سياســـية وبروز نخب فكرية تدعو إلـــى التخلي عما أصبح يعتري الممارسة السياســـية. من جهة نجد السياســـيين المحترفين مدججين بشواهد عليا (ديمقراطية المُدَبْلَمين)، وهم نخبة استفادت من النظام التعليمي بأشكال مختلفة، وتحولت إلى طبقة مغلقة، لا تتواصل مع كل فئات الشعب؛ بل تدير نقاشاً هو عبارة عن تناجٍ (مونولوج) بين أفرادها، والذي قد تتواطأ فيه فيما بينها ـ مـــن خلال توافقاتها السياســـوية على حســـاب مصالح الشـــعب وانتظاراته ـ وتصبح فيه الديمقراطية عبارة عن مراهم أو شكليات.

في مقابل ذلك هناك السياســـة العفوية التي تفتقـــر إلى المهنية، والتي تنتصر للفئات الشعبية التي ليست بالضرورة من المستضعفين والمهمشين أو الهامشيين. وتبتكر هذه الشعبويّة أشكالاً من الديمقراطية، التي لا تحتل فيها المحاسبة تعاقداً مضبوطاً ساعية إلى التهرب من تحمل المسؤوليات.

إن خطر الشعبويّة يكمن في مغازلتها للغرائز الدنيا والأولية لأفراد الشعب. غير أن هناك من يرى أن لها إيجابيات إذا كانت تسعى للرفع من قيمة الشعب لتنتج من بينه نخباً جديدة؛ وذلك في السعي إلى التمييز بين شعبويّة سلبية وأخرى إيجابية، إلا أننا نرى أن الديمقراطية سيرورة لا تحتكم إلى النماذج أو الوصفات، ولكنها مفهوم يقوم تأصيله على توسيع مجال المشاركة، بما يخلق ويضمن حقوق الأقليات في تنوعها واختلافها، ضمن تضامن مجتمعي عام يكفل تكافؤ الفرص، والعدالة الاجتماعية. إن الشعبويّة زلزال يهدد الديمقراطية؛ لأنها غير مكتملة ونهائية؛ مما يجعل البعض يتحدث عن الديمقراطية كسراب تلهث وراءه كل المجتمعات والأنظمة، إلا أنه عليها ألّا تتوقف؛ لأن «من ينام في الديمقراطية يستيقظ في الديكتاتورية» كما يقول رينيه كاسين[12] René Cassin. ويمكننا أن نقارب كذلك الشعبويّة من زاويتين:

إنّ خطر الشعبويّة يكمن في مغازلتها للغرائز الدنيا والأولية لأفراد الشعب. غير أن هناك من يرى أن لها إيجابيات إذا كانت تسعى للرفع من قيمة الشعب لتنتج من بينه نخباً جديدة؛ وذلك في السعي إلى التمييز بين شعبويّة سلبية وأخرى إيجابية.

- **من زاوية السلطة:** تبدو الشعبويّة كما لو أنها تقوم على نداء مباشر للشعب، يبدو فيه مفهوماً «سوقياً» كناية عن جماهير حاملة لرغبات وحقوق دون واجبات. ومن هنا تنبع الفكرة التي تجعل الزعيم يستلم سلطاته من الشعب مباشرة دون اعتماد (مرور عبر) هيئات وسيطية من طبيعة مجردة وغير مشخصنة من قبيل النظام التمثيلي، والمؤسسات، والأجهزة والسلطات السياسية والإدارية، وكذلك لأنه جزء من الشعب. ومن هنا فإنه لا يتعامل إلا مع الشعب، ومنه يتلقى التوجيهات. ومن ثم فعلى الجسم التشريعي أن ينتج قوانين على أساس برامج يريدها الشعب

12 ـ رجل قانون وسياسة ودبلوماسي. كان عضو حكومة فرنسا الحرة خلال الحرب العالمية الثانية. ومن بين محرّري الإعلان العالمي لحقوق الإنسان (1948). وشغل منصب نائب رئيس مجلس الدولة، وكذا رئيس المحكمة الأوروبية لحقوق الإنسان. حاصل على جائزة نوبل للسلام، وجائزة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان.

وتستجيب لانتظاراته، لكنها في العمق تخدم الفئات الحاكمة والطبقة السياسية في تعارض مع الشعارات المرفوعة.

• **ومن زاوية الشعب:** يلاحظ أنه من المبدئي أن تبتكر الشعبويّة «آخَر» يكون شمّاعة لكل ما يعانيه (أحداث إفريقيا الجنوبية مؤخّراً كمثال). وهذا الآخر (أو أولئك الآخرون) قد يختلفون من شعبويّة إلى أخرى؛ فقد يكونون من الأجانب (المهاجرين)، أو هيئة سياسية، أو فئة اجتماعية، أو إثنية (غالباً أقلية)... (الشعبويات في إيطاليا نموذجاً). غير أنه من المفيد الإشارة على أن هذا الآخر يتغير مع الظرفية الاجتماعية ومعه يتغير الخطاب الشعبوي.

إن الرغبة في الحفاظ على الرابط مع الشعب تؤثر على السلوك الشخصي، مما يجعل الاتصال الجماهيري فرصة لإطلاق وعود معسولة، ينخدع الشعب عبرها بنفسه (المساندون / المستفيدون على الخصوص) ويعزز الزعيم مكانته. فوسائل الإعلام عبر الشخصنة تجعل الزعيم حاضراً ومتواصلاً، وتخلق معه نوعاً من العلاقة الحميمية الافتراضية التي تعطي الإحساس بالقرب، والرغبة في التقليد، والشعور بالشبه إلى حد التماهي.

إن أزمات الديمقراطية المتمثلة في «صعوبة بنائها» وتعقد تدبيرها تساعد على بروز الشعبويّة لما يعبّر عنه المواطنون (الشعب) من عدم الصبر والتريث والتضامن... وهنا يجب ألا نغفل عن آثار الحداثة (وحتى التحديث) من خلال بروز الفردانية وتقويتها، والرغبة في الاستمتاع، وجنون الاستهلاك... كلها تُعدُّ في جوهرها لا ديمقراطية، وفي أحسن الأحوال من الأعراض الجانبية للديمقراطية، والتي تنمو على ضفافها الشعبويّة؛ فالشعبويّة تعبير عن تلبية مصالح ذاتية مغلفة بمطالب شعبية، أو مقدمة باسم الشعب في قالب ثقافي هجين ومبتسر. وبهذا تكون الشعبويّة رديفة للفاشية وما يلازمها من أعراض.

وخلاصة القول: إن الشعبويّة ردّة فعل على أوضاع يعم فيها «الخوف الجماعي» عامّاً كان أو خاصّاً، كما نلاحظه في عدد من الأقطار في وقتنا الراهن. وعلى الفاعلين على اختلاف أنواعهم ألّا يستسلموا لما قد تتسبب فيه من مخاطر على مختلف الأصعدة.